القسمُ الأَول

ورثة إسماعيل

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الأول

الأمير فواز أمير الرولة الشاب

لوّنت الشمس المشرفة على المغيب بألوانها الرقيقة روابي جبل رواك العارية. في الجنوب الغربي غطّت الخيام السود وقطعان الجمال الغبراء سهل طريف بعد حصاده القريب. وهرول نحونا الرجال المسلحون على ظهور خيولهم الرشيقة عندما اقتربت بصحبة عدة فرسان ـ ولأول مرة في حياتي ـ من «المنازل» المنسوجة من شعر الماعز، من مضارب بدو الرولة.

هؤلاء الحراس الفرسان الذين أتوا لملاقاتنا قادونا إلى خيمة عبدٍ عجوز صبغها الدخان. وهنا استقبلني الأمير نوري الشعلان أمير القبيلة ذو اللحية الرمادية.

وقبل بدء الحرب العظمى الأولى بعامين استبدل الأمير نوري بخيمته المريحة مخبأً وضيعاً لأحد عبيده، وأختبأ فيه بعد أن أخطر بنشاط المطالبين بالثأر منه وهم رجال من أهله.

obeikandl.com

فأثناء الصراع على مشيخة القبيلة صرع أحد أخوته بيديه كما قتل عبيده أخاً آخر. وهكذا فإن أبناء القتيلين الذين بلغوا سّن الرشد لم يكونوا فقط يحاولون الثأر لهما بل انتزاع المشيخة من نوري الشعلان.

وبينما كان نوري يتهرب من أعدائه في القبيلة كان ابنه الأكبر نواف مسؤولاً عن قيادة الرولة ضد أعدائهم الخارجين. وكان نوري أباً لعائلة كبيرة، وكان في الحقيقة ينسب إليه ٨٢ ولداً ٣٧ منهم ذكور. وقد مات معظمهم تقريباً ميتة غير طبيعية.

وبعد هذا اللقاء الأول بنوري الشعلان ببضعة أيام قمت بزيارة لنواف الذي نصب خيامه على مسافة مسيرة يوم كامل قرب **بحيرات الركبان المطرية**، على مسافة مئة وعشرين ميلاً إلى الشرق من دمشق.

كان نواف يختلف كل الاختلاف عن والده، فقد كان يفتقر إلى شخصية الشيخ العجوز القوية. كما لم تكن لديه الموهبة ليعدّ للحرب قبيلة كبيرة كالرولة يملك سبعة آلاف خيمة وخمسة وثلاثين ألف نسمة، وأكثر من ثلاثمئة ألف جمل.

لقد جمع للتّو مجموعة صغيرة أخرى لتدعيم قواته العاملة ضد الجوف؛ وهي الواحة الواقعة على الطرف الجنوبي الشرقي من انهدام وادي السرحان العريض الخصب. وكانت قواته قد استولت على بعض المراكز الأمامية الأقل تحصناً. ولكن هذه النجاحات لم تجلب لنوّاف إلا القليل من رصيد نواف: فلم يستطع كسب احترام رجال قبيلته ولا احترام المستوطنين الخاضعين له لكي يدعّم مركزه. وبالإضافة إلى ذلك فإن هذا الهجوم على الجوف كان عكساً للسياسة القبلية. فمنذ القديم تاجر الرولة مع تلك الواحة وقايضوا بجمالهم وصوفهم وأجبانهم وزبدتهم مقابل التمور والشعير والملح والقهوة وتجهيزات الخيام **وشداد** الجمال والأقمشة. وفجأة ـ وبعكس نوايا الشيخ العجوز ـ رسم نواف خطة لاحتكار هذه التجارة لنفسه واحتلال الواحة لكونها معقلاً استراتيجياً يسيطر منه على شمال الجزيرة العربية وطرق القوافل إلى نجد.

وعلى مرأى من الجوف تبدو صحراء النفوذ العظيمة التي تمتد أكثر من ثلاثمئة ميل من الشرق إلى الغرب، ونحو مئتي ميل من الشمال إلى الجنوب. فنصفها الشمالي المسمى اللاّبّة يشكل المراعي الحقيقية للرولة. كما أن موطنها الحقيقي هناك. والجزء الجنوبي تحت سلطة بدو الشمّر الذين جعلوا من حايل في الطرف الجنوبي من النفوذ مركزاً لتجارتهم.

وقد بقي الشمّر تحت حكم ابن الرشيد حتى بعد الحرب، وهو حاكم مرتد من عائلة ابن سعود ثار مع حراسه الزنوج ضد أسياده واستولى على حايل. ولكن ابن سعود نجح في استرداد هذا الموقع الهام الذي أمّن له السلطة المطلقة في وسط الجزيرة (نجد والقصيم والحجاز).

والجميع يعرف جهود ابن سعود لدمج كل القبائل في وحدة وطنية وإخضاعه ـ في الحملة تلو الحملة ـ جميع الشيوخ الذين قاوموه. والآن أثناء إقامتي الأولى في أرض البدو كان ابن رشيد ـ هذا الحاكم المنشق ـ لايزال يسيطر على القسم الأعظم من داخل الجزيرة العربية. وقد أصبح السيد المطلق؛ مما جعل أسياده السابقين ـ عائلة ابن سعود يعيشون في المنفى لعدة عقود من السنين، بينما تمتع هذا «الأمير الأسود» بالسيادة على المدن والواحات والكثير من القبائل البدوية في وسط الجزيرة.

في تاريخ الجزيرة ليس هناك سوى القليل من الإنجازات التي تفوق في جسارتها استرداد ابن سعود ـ مع حفنة من رجاله ـ لعاصمته الرياض وإخضاعه لحايل وشمّر، حتى أصبح بعد سلسلة من النجاحات حاكم الجزيرة الفعلي الذي يتطلع إليه العالم اليوم بالإعجاب العميق.

وفي هذه الفترة التي أتحدث عنها ـ ١٩١٢ ـ كان نواف بن نوري الشعلان في حرب ضد أعداء الرولة التقليديين وهم بدو الشمّر، وحاكمهم ابن الرشيد الذي يسيطر على الجوف. وكان الاستيلاء على هذه الواحة هدف هذا القتال الطويل المرير، إذ أهدر الكثير من الدماء وحصل كل عام على نصيبه من حياة الرجال. والآن اقترب نواف كثيراً من هدفه وسرعان ما سقطت الجوف بين يديه.

كان لنواف ثلاثة أبناء منهم الأمير الشاب فواز الذي سأبدأ قصتي معه. إنني مدين لهذا الغلام بفضل حياتي مع الرولة كواحد منهم، والسماح لي بزيارتهم إحدى عشرة مرة خلال اثنتين وعشرين سنة ومشاركتهم في الترحال والصيد والحرب، وعبوري المتكرر لمراعيهم عاماً بعد عام على ظهور الخيول أو الجمال، وقبولي في القبيلة كزعيم رولي، ومعرفتهم بي وحبهم لي كما عرفتهم وأحببتهم.

كان الأمير فواز في الثامنة من العمر. ومع ذلك فقد عرف عنه بأنه فارس بارع وصياد ماهر على الرغم من أن ساقيه كانتا قصيرتين للتشبث بجانبي الفرس، وكان ذراعاه ضعيفين لموازنة البندقية لفترة طويلة. أما القراءة والكتابة وهي ما يسميها العرب «العلوم الدنيوية» فلم تكن تهمه أبداً، فقد آثر ركوب الجمال أو الاشتراك في الصيد. وقد أخبرتني بكل اعتزاز والدته مشاعل، التي أصيبت بالعمى، أن من بشائر الخير المستقبلية وضع نوري الشعلان للجام فرسه الحربية والخنجر الفضي في سرير الصبي. وهذا هو نفس الخنجر الذي قتل به نوري **بالنزال الفردي أحد زعماء المنتفق الثانويين.**

بعد ظهر أحد الأيام كان فواز الصغير ومجموعة من أصدقائه الصبية يتدربون بالمقاليع، وهي السلاح الذي قتل به داوود غولياث. كانوا يرمون الحجارة المسطحة بدقة مدهشة على الأوتاد الخشبية المعقوفة، التي يبلغ ارتفاعها قدماً واحداً من مسافة ثلاثين خطوة. وخرجت من خلف الخيمة دون أن يراني الصبية. وصادف أن حجراً أصاب الهدف بالقرب مني وارتد من الصقيل فأصابني في جبهتي بين العينين. وقد أصبت بالذهول للحظة نتيجة للصدمة لا نتيجة للضربة نفسها. وحسبت لأول وهلة أنني أصبت برصاصة.

وهرع إليّ فواز بفم فاغر ووجه خائف. ولاحظ الجرح في جبهتي وبضع قطرات من الدم على أصابعي التي ضغطت بها على جبهتي أثناء ارتباكي. وعندما أخذت الصبي بين ذراعي ورفعته ضاحكاً ليعلم أن القضية ليست بالخطيرة علتْ وجهه نظرة غاضبة كما لو أنه أهين. وتملّص من بين ذراعي ووقف أمامي ثم نزع

كوفيته وعقاله من رأسه تاركاً جدائله الست الجميلة تسقط على كتفيه وتصل حتى فخذيه. وصاح والدموع تنحدر من عينيه الجريئتين: «أنا دخيلك إنني أسلمك نفسي بوجه الله: أخبرني عن ثمن دمك» لم يبد في صوته أي ندم كما لم يعبّر عن أي رغبة في الغفران. كانت كلماته تحدياً واضحاً لأنه اعتقد أنني سخرت من عرضه. واندفع قلبي نحو هذا المخلوق الصغير. لقد أحاط نفسه بجو من التحفظ والكبرياء، ومع ذلك كان من المستحيل أن أغضب منه. ألم تكن طريقته في التفكير تختلف كلياً عن طريقة الأوروبي؟ وبدون قصد أثقل دم ضيف والده على ضميره ولم يفكر إلا في إرضائي قبل أن تنتشر أخبار هذه الحادثة. ولم يكن من المهم كمية الدم الذي أريق والذي كان في هذه الحادثة بضع قطرات، فالشيء المهم لديه هو القانون البدوي غير المكتوب الذي يضمن سلامة الغريب وحرمته ولو كان في خيمة بدوي وضيع. وثمن دم الضيف ضعف ثمن من يقتل في الحرب: خمسون جملاً وأربعة خيول.

كان عليّ أن أبتسم عندما فكرت في الثمن المقدر لبضعة قطرات من دمي. ولكنني خارجياً أعدت الوقار إلى وجهي واستدعيت الأولاد الآخرين والرجال الذين تجمعوا حولي ليكونوا شهوداً، وقلت للأمير فواز: «لقد حدث ذلك حسب مشيئة الله. إنني لا أعرف أي ثمن آخر سوى صداقتك».

وساد الذهول التام لحظة من الزمن. وحدّق نحوي بعينين واسعتين. ومن المرجح أن الأمير فواز لم يستطع أن يصدّق أنني ـ الغريب ـ أستطيع أن استشهد بعادة أجداده القديمة. وفجأة رمى المقلاع المشؤوم وتقدم نحوي بذارعين مفتوحين وضمهما حول عنقي بتأثير صبياني عندما انحنيت نحوه. وبعاصفة من الحب البهيج ضممت الصبي إلى صدري وقبلته على الخدّين. وبإصبعه الصغيرة لمس برفق الخدش على جبهتي ودلك أربع قطرات من الدم على جبهته بين حاجبيه الأسودين وهذا هو المعروف بدوياً بنور الدم.

وبهذه الطريقة الغريبة الدرامية أصبحت ـ بمشيئة الله ـ أخ الأمير فواز بالدم. وبعد فترة قصيرة تعمدت صداقتنا بالنار. خرجت للغزو عصبة من الرولة

(قوامها مئتان وثمانية وستون محارباً بقيادة **رشيد بن وفا**) إلى الحماد ومنطقة الوديان ضد بدو (الشمر)، وخرجت بصحبتهم، وسرنا اثنتي عشرة ساعة في اليوم الأول. وفي المعسكر في تلك الليلة كنّا نتفحص معداتنا وقرب مائنا وما شابه ذلك. وكم كانت دهشتنا عندما اكتشفنا الأمير فوّازاً غارقاً في نومه ملفوفاً بخرج الجمل المصنوع من شعر الماعز. وهي أوعية ضخمة مصنوعة من جلود الماعز.

ولم تصدر عنه أية إشارة أو أي صوت خلال المسيرة الطويلة الشاقة تُعْلِمُنا أننا نحمل معنا متخفياً. وأراد قائدنا رشيد (**من مراف الرولة**) أن يعيد الصبي إلى المضارب في الصباح مع أحد ركاب الجمال، ولكن فواز توسل بجدية لمست قلب قائد الغزوة فأرسل رسولاً إلى خيام مشاعل ليخبرها أن ابنها معنا.

واستمرت غزوتنا نحو شهرين. وعندما عدنا ـ بعد أن أرهقنا التعب وتكبدنا الخسائر الفادحة ولكن منتصرين ـ أخذ الأمير فواز أربعة من جمال الغنائم الغبراء إلى المضارب وأناخها أمام خيمة أمه العمياء. وتساءلت مشاعل التي لم تزل شابة عن الغريب الذي ينزل في ضيافتها فصاح أحد الرولة «يا خالتي إنه أمير عظيم يأتي ليشرفك أيتها الأبنة المباركة». وسألت الأم: «أين ديرته لأرسل عبدنا العجوز حمد ليعلن أنه جارنا» فأجاب الرولي: «اسمه الصقر الصغير وديرته تمتد امتداد البصر. إنه ابنك يا أم فواز».

وفي تلك الغزوة قطعت يد قائدنا **رشيد اليمنى** بالسيف فأغمى عليه من فقدان الدم، ولكن العبيد غمسوا الذراع المقطوع بالزيت المغلي ـ وهو علاج يائس، لكنه ناجح لأن رشيد استعاد وعيه. ومنذ ذلك اليوم حمل رشيد ذراعه المقطوعة معه في سرج بعيره. وقد جفّت تماماً مثل المومياء.

عندما وصلنا **بحر سيجال** وهو القلعة التركية الأولى قرب **الضمير**، أرسل قائدها كتيبة من الفرسان إلى معسكرنا لأنه كان قد أخبر تلغرافياً بعملياتنا غير المشروعة في جوار الأراضي المزروعة في ما بين النهرين. كانت القوة تبحث عن رشيد لكونه مسؤولاً عن ذلك. ولكن رشيد لم يستطع حمل ضميره على القبول

بالزنزانة التركية. وضع ذراعه المقطوع الجاف في حقيبة جلدية وأملى على كاتب فواز الرسالة التالية إلى القائد التركي الصغير في الضمير: «بسم الله الرحمن الرحيم. لا أستطيع أن أخدم سلطانك كعسكري لأن لي جدعة ذراع. كما لا أستطيع أن أعمل في خدمتك كسجين، ولا أستطيع أن أشد على يدك كصديق. فبماذا أفيدك؟ ولكني أرسل لك ذراعي كرمز لاستسلامي النهائي لأنه معتاد على قطع يد السارق. وتأكد أنها ذراعي ـ ذراع رشيد بن وفا قاطع الطريق. وليرحمنا الله».

* * *

obeikandl.com